الفصل السابع

الفلسفة في الحضارة الرومانية

الجزء الأول

مقدمة

من المعروف أن الرومان هزموا القرطاجيين وهدموا قرطاجة قبل أن يغزوا الشرق ويسيطروا على معظم أرجاء الإمبرطورية التي خلفها الإسكندر المقدوني وراءه. فاحتلّوا مملكة انتيغوناس في اليونان ومقدونيا ثم استولوا على المملكة السلوكية التي امتدت من آسيا الصغرى حتى حدود مصر جنوبًا وبلاد فارس شرقًا وقضوا على مملكة البطالسة في مصر. وعلى الرغم من استقلال الممالك الثلاث التي ضمت أكثر أجزاء إمبرطورية الإسكندر، كان التعاون على أشده بينها وعم السلام العالم لمدة ثلاثة قرون تقريبًا وحل التسابق التجاري والعلمي مكان الصراع الدموي على النفوذ والسلطة. عاش العالم في ظلّ هذه الممالك الثلاث فترة من العولمة الحقيقية حيث أصبح العالم وطنًا واحدًا يتكلم لغة واحدة مع الاحتفاظ باللغات الأم، ويسلك طرقا آمنة، ويتداول عملة واحدة، ويتعلم العلوم والآداب والفنون التي تركها الإغريقيون القدماء وتناقلها أبناء الحضارات

الأخرى. فازدهرت التجارة والصناعة والعلوم وعاش العالم فترة من الوحدة السياسية في ظلّ تنوع لغوي وديني وقومي. ونمت المدارس التي هي أشبه بجامعات اليوم في الإسكندرية وأنطاكيا والرّها ونصيبين وجنديسابور. وعندما سيطرت روما على العالم، فرضت سيادتها على الجميع بقوة الحديد والنار، والويل كل الويل لمن يقف في وجه روما. فلم يكن التنوع مسموحًا به والغلبة لروما والعز لها وليس لأي قوم أو مملكة أن تقوم من دون أن تقضي عليها روما وتزيلها من الوجود كما حصل لقرطاجة وتدمر. ولكن روما لم تغز العالم لترفع لواء حضارة شامخة ومتكاملة كما فعل الإسكندر، بل رغبة في السيطرة على العالم بقوة السلاح، ولم يكن هناك ما يذكر من حضارة تقدمها للشعوب التي غزتها، سوى الحضارة التي خلفها الإغريق. وهكذا اندحر اليونانيون أمام الجحافل الرومانية والقوة العسكرية، ولكن الرومان الذين لم يصيبوا شأوا عاليا في الحضارة والعلوم وقعوا بدورهم أسرى الحضارة اليونانية العريقة والمتكاملة.

أنيادة فيرجيل

نبدأ بالحديث عن الأنيادة لأنها خير دليل على وقوع الرومان أسرى الحضارة اليونانية. ولا شك أن الشاعر فيرجيل ألّف الأنيادة متخذًا إلياذة هوميروس نموذجًا له. فالأنيادة Aenied هي ملحمة بطلها إنياس مثال البطولة والمروءة وحب الآلهة والوطن والعائلة والتقاليد والوفاء والملقب بالوفي. إنه مستعد دائمًا للدفاع عن وطنه وعائلته. هيّأت له الآلهة أن يبني روما بعدما هدم اليونانيون طروادة Troy. فهو مثال الإنسان الرواقي Stoic بينما أليسار، ملكة قرطاجة الفينيقية التي وقعت في حبه، هي مثال الإنسان الأبيقوري الذي يضع اللذة في قمة أولوياته. وسنستكمل البحث في مزايا الإنسان الأبيقوري وخصائص الإنسان الرواقي لاحقًا في هذا الفصل. والآن يهمنا أن نتحدث الآن عن فيرجيل الذي يصف المثالين في وحدة ملحمية شديدة التأثير.

والأنيادة من دون شك هي ملحمة شيقة يهدف فيرجيل من كتابتها أن يجاري هوميروس ويقدم للرومانيين ما قدمه هوميروس لليونانيين من أدب وثقافة تجعل الرومانيين فخورين بثقافتهم وتاريخهم. ألف الأنيادة في عهد الإمبراطور أغوسطس قيصر الذي انتصر على جميع أعدائه ووحد الجيش الروماني وبسط سلطة روما على الشرق والغرب. أراد فيرجل أن يكتب ملحمة تسجل أعمال أغوسطس البطولية ويؤسس لعظمة روما سيدة العالم بلا منازع. فجاءت الأنيادة لتتكلم عن البطل الأسطوري إنياس الذي أنقذته الآلهة من الموت المحقق في طروادة واختارته ليقود نخبة من الطرواديين كي يبحر معهم ويؤسس مدينة روما العظيمة التي ستلعب دورًا كبيرًا في العالم. ستصبح القوة التي ستخضع العالم إلى سلطة القانون وتنشر الحضارة في جميع أرجاء المعمورة. فكان أنياس بمثابة مؤسس روما الروحي الذي سبق ليرمز إلى مجيء أغوسطس قيصر المؤسس الفعلي والمحقق الأول لعظمة روما.

بعد المكيدة التي صنعها أوديسيوس بالطرواديين بإدخال الحصان الخشبي وعودة الجيش اليوناني إلى طروادة متظاهرًا بالتراجع، تراءت الآلهة لإنياس وطلبت منه أن يكف عن قتال الإغريق، لأن طروادة لا محالة ساقطة في أيديهم. فعليه أن ينقذ نفسه ومجموعة من رفاقه ويذهب إلى بلاد اللاتين في إيطاليا ليضع حجر الأساس لروما العظيمة. يخبر أباه بما جرى ويطلب منه أن يأتي معه ولكن أباه يرفض العرض ويفضل الموت في أرض آبائه وأجداده. ولكن تظهر للوالد رؤيا في المنام تقنعه بمصير ابنه التاريخي فيرضخ للأمر الإلهي. يضع إنياس سلاحه ويحمل أباه على ظهره ويمسك امرأته كروزا بيد وابنه الصغير بيد أخرى فى لحظة ملؤها الحنان الأبوي والتضامن العائلي المثير للشجن. وكان أبوه يحتضن تماثيل آلهة بلاده التي تربطه بتاريخه وبعائلته ووطنه. وكان لهذه القيم: حب آلهة روما، وحب الوطن، وحب العائلة دور كبير في تاريخ روما، إذ بقيت حجر الأساس في الحضارة الرومانية. ولكن شاءت الأقدار أن تفلت امرأته من

يده وتضيع في حمى المعركة. فيترك إنياس رفاقه في مكان آمن خارج أسوار المدينة ويعود لينقذ زوجته، فيناديها في الشوارع المقفرة والدموع تملأ عينيه، ولكن طيفها يظهر له ويرجوه إنقاذ نفسه وولده ورفاقه لأن القدر لا يشاء لها أن تكون معه. فيعود إلى صحبه ويجدهم قد أعدوا العدة وجهزوا السفن ليركبوا البحر، ولكن ما أن نزلوا البحر حتى تهب ريح عاتية، فتتقاذفهم الأمواج العاتية هنا وهناك وبقوا على هذه الحال بضعة أيام وكادت سفنهم تتحطم ويهلكوا جميعًا. ولكنهم استطاعوا أخيرًا أن يصلوا إلى شاطئ النجاة وترسو بهم السفن على ساحل قرطاجة مدينة الملكة أليسار التي كانت في استقبالهم ورحبت بهم أجمل ترحيب .

عندما حطت الرحال بأليسار وأصحابها على شواطئ أفريقيا الشمالية، كانت مشرّدة هاربة من مدينة صور الفينيقية في جنوب لبنان أثر منازعات سياسية على الحكم بين زوجها وأخيها أودت بحياة زوجها. فأسست مملكة هناك في قرطاجة لا تزال آثارها باقية إلى الآن في جمهورية تونس. فمدت يد المساعدة إلى إينياس وهو في أحلك أوقات حياته، بعد أن خسر مدينته طروادة وزوجته. فأسكنته هو ورفاقه الناجين من الموت في ديارها على الرحب والسعة. ولكنها أعجبت به كثيرًا وتأثرت ببطولته واستبساله في الدفاع عن مدينته ووقعت في غرامه. فتخلت عن تحفظها وتركت لعواطفها ومشاعرها العنان واندفعت في غرامه بشكل يقارب الهوس والجنون، وهي المرأة العارفة بأمر الحب والزواج والملتاعة بفقد زوجها في الدسائس السياسية التي عاشتها في وطنها الأم صور. وقد رفضت الزواج من كل من تقدم طالبًا يدها في أفريقيا. ولكن حبها لإنياس أفقدها كل صوابها وملك عليها عقلها. فبادلها إنياس الحب والغرام وانصرف لتلبية كل طلباتها ورغباتها. فنسي ما أعدته الآلهة له. وبات لا يفكر في شيء سوى بالتمتع بوجوده مع حبيبته أليسار.

يصور فيرجيل المأساة التي ستلتهم مصير العاشقين وسترمز للمصير المأسوي الذي ينتظر شعبيهما ومدينتيهما. فلا تكتفي أليسار بحبها لإنياس

في السر وإنما تجهر به أمام الجميع حتى قبلما يربطهما الزواج بحسب التقاليد. لقد شاءت الآلهة أن يذهبا إلى نزهة للصيد في البرية مع حراسهما. ولكن المطر الشديد أرغمهما إلى اللجوء إلى مغارة معًا ولم يتوقف المطر لعدة أيام. فانتهز العاشقان الفرصة وأفرغا ما في جعبتيهما من الوجد والهيام غير عابئين بالتقاليد والمقدسات. وعللت أليسار تصرفها بأنها تحب إنياس حبًا شديدًا هو بمثابة الرباط الأبدي المقدس للزواج ووعدت نفسها بأن لا تخون ذلك الحب أو تتخلى عنه تمامًا كما كانت ستفعل لو شاءت الأقدار أن تشهر زواجها من إنياس. وظنت أن إنياس يبادلها الاعتقاد ذاته والمشاعر نفسها. ولكن الآلهة كانت لهما بالمرصاد، فترسل رسولا يذكر إنياس بالمهمة المصيرية الملقاة على عاتقه والتي قادته إلى قرطاجة أساسًا. يخبره ماركوري إله البريد والبرق ورسول جوبيتر إله الآلهة بأنه يستطيع التخلي عن ذلك المصير والانجرار وراء ملذاته ومتعته الشخصية ويعيش بقية حياته بين أحضان ديدو، المسمى الآخر لأليسار، على شواطئ قرطاجة. ولكنه إذا لم يسع لتأسيس المملكة التي وعدته الآلهة بها من أجله هو، فليفعل ذلك من أجل ابنه الصغير وأحفاده. فيعود إنياس إلى حواسه ويفيق من ذهوله واستسلامه للمتعة والأحلام ويأمر رفاقه بإعداد السفن للرحيل. تعلم ديدو بالأمر فيطير صوابها. كيف يهجرها حبيبها بعد أن سلّمته حياتها وروحها؟ وماذا يتبقى منها؟ بل كيف يتجرأ على الرحيل من دون إعلامها بالأمر مسبقا؟ ألا تعني له شيئا؟ أين زواجهما الذي تم في المغارة وشهدت عليه الآلهة وباركته بالمطر الذي هطل مرارا لأيام وأيام؟ فترسل الملكة في طلب إنياس، فيأتي ويخبرها بالأمر وأن عليه الرحيل لأن الآلهة شاءت ذلك. فتحاول ثنيه عن عزمه والبقاء معها في قرطاجة ملكًا مكرمًا معززًا. ولكنه يأبى، إذ عليه أن يسعى لتحقيق مصيره وينصاع لما تأمره به الآلهة. فيترك ديدو ويرحل إلى إيطاليا. أما هي فتفضل الموت على الحياة من دون الرجل الذي أحبته من كل قلبها وجوارحها. فتقتل نفسها وتطلب من أختها أن تحرق جثمانها. وعندما يصل إنياس

وصاحبه إلى شواطئ إيطاليا يضطرون لغزو بلاد اللاتين وقتل ملكها. فتتدخل الآلهة وتجري الصلح بينه وبين الشعب اللاتيني. فتتم المصالحة على أن يحكم القادمون من طروادة البلاد التي غزوها ويتزوج إنياس أميرة اللاتين، بشرط أن يتخلى هو وصحبه عن لغتهم الأم لصالح اللغة اللاتينية.

أبيقور أو أبيقوروس Epicurus(341 – 270 ق.م)

مع أن أبيقوروس فيلسوف يوناني ولد في ساموس من أسرة أثينية في القرن الثالث قبل الميلاد، إلا أن شهرته لم تطبق الآفاق إلا بعد أن تبناه الرومان. لقد قدم أبيقوروس أثينا عندما بلغ 18 سنة من العمر وبعد فترة وجيزة رحل إلى آسية الصغرى ومن ثم عاد إلى أثينا وأسّس فيها مدرسة سنة 306ق.م. في حديقة عرفت بـ"حديقة أبيقوروس" وأقبل عليها التلاميذ رجالًا ونساءً. له كتابات كثيرة منها كتاب "في الطبيعة" وآخر في المنطق. وكانت الأخلاق محور فلسفته، واضعًا القانون أو المنطق والعلم في خدمة الأخلاق. وليست الفلسفة في نظره سوى "الحكمة العملية التي توفر السعادة للناس بالأدلة والأبصار" . وهي في متناول كل إنسان وفي كل سن أو وقت. العلم بالنسبة لأبيقوروس لا ينتهي بل يستمر طيلة الحياة. فتح مدرسته لكل طالب يلم بالقراءة، لأن التفكر أو التفلسف يتلاءم مع كل عمر. والسعادة هي للجميع، فلا أحد يمل أو يتعب منها. أساس المعرفة عنده هي المحسوسات التي تقود إلى تولد المعنى الكلي، ومن ثم الحدث الفكري. اللذة والألم هي انفعالات وتكون بمثابة الشكل الأولي أو البدائي للمعرفة.

نظرة أبيقوروس إلى الطبيعة

يعتبر أبيقوروس أن دراسة الطبيعة شيء ضروري لطرد المخاوف والأوهام التي تحدث للإنسان. وغاية دراسة علم الطبيعة هي الحصول على السعادة التي تنتج من خلال معرفة خبايا الطبيعة وأسرارها. وتزيل المعرفة الشكوك والمخاوف التي تنتاب الإنسان من جراء جهله. والعلم

الطبيعي يقدم تفسيرات ممكنة ومعقولة تساعد البشر في التخلص من المخاوف التي تتعلق بالظواهر الطبيعية، كالخوف من الخسوف والصواعق وهبوط النيازك على الأرض والظواهر الطبيعية وانتهاء العالم وغير ذلك.

يعتقد أبيقوروس أن الطبيعة أو العالم يتألف كما قال ديموقرايطس من عدد غير متناه من الذرات المتناهية في الصغر تتلاطم مع بعضها البعض، فتفترق تارة وتتحد طورًا مؤلفة أجسامًا ذات أحجام مختلفة وجواهر كبرى وعوالم كبيرة جدًّا منها الأجرام السماوية، ولكنها تنحل مع الزمن لتعود وتتحد بأشكال أخرى وهكذا إلى ما لا نهاية. فالجواهر تتحرك في الخلاء غير المتناهي، بينما علة الحركة هي داخلية على الجواهر وهي ثقلها. الإرادة الداخلية هي الإرادة الحرة، والحرية هي شرط للأخلاق. والنفس الإنسانية بالنسبة لأبيقوروس هي جسم حار لطيف للغاية تتآلف وتنسجم مع الجسم وتنحل بانحلاله وموته. وللنفس وظيفتان: حيوية لبث الحياة ووجدانية للإحساس والشعور والفكر والإرادة.

أما في شأن وجود الآلهة، فيعتقد أبيقوروس أن الآلهة موجودة لشيوع هذه الفكرة بين الناس جميعًا، ولكثرة ترائي هذه الفكرة لنا في اليقظة والمنام. وفي المقابل مع الشقاء الذي يصيبه الإنسان في هذا العالم الفاني، تبقى الآلهة سعيدة وخالدة. ولكن الآلهة لا تنشغل بهموم البشر وآلامهم ولا تتدخل بشؤون العالم.

الأخلاق

السعادة هي اللذة الجسدية، وغاية الوجود هي اللذة. الحيوان يطلب اللذة مثلنا، من دون تفكير أو تعلم. والطبيعة هي التي تحكم فيما يلائم الحيوانات، ليس العقل. وسيلة السعادة هي الفضيلة. والعقل والعلم والحكمة تقوم في تهذيب الوسائل وتوجيهها إلى الغاية المنشودة. كل لذة خير، وكل وسيلة هي كذلك خير، بشرط أن تكون اللذة، لذة، والوسيلة المؤدية إليها خيرًا. فللّذة عواقب، وقد لا تكون جميع عواقبها خيرًا. الشره

مثلًا يولد المرض، فيجب تبديل اللذة بالألم، واجتناب اللذة ألم. وللألم عواقب قد لا تكون كلها شرًا. فيجب تقبّل الألم القليل الذي يقود إلى لذة أعظم.

تصنيف اللذات:

1) لذات صادرة عن نزعات طبيعية وضرورية، كلذة الطعام والشراب والجنس وغير ذلك.
2) لذات صادرة عن نزعات طبيعية ولكن غير ضرورية مثل لذة الأطعمة الفاخرة والترف والرخاء.
3) لذات صادرة عن نزعات غير طبيعية وغير ضرورية، مثل لذة المال والمركز الاجتماعي. والحكيم هو من لا ينصاع إلى إرضاء ملذاته غير الطبيعية وغير الضرورية.

الألم ينتُج عن اختلال توازن الجسم، من جراء الانجرار وراء اتباع ملذات من النوع الثاني والثالث. واستعادة توازن الجسم تقود إلى الطمأنينة، واللذة هي الاستمتاع بالتوازن. واللذة العظمى هي غياب الألم. ولكن الجسم معرّض دائمًا للألم والأمراض والعوامل الطبيعية الصارمة. لذا فاللذة القصوى مستحيلة. ولكن اللذة العقلية هي دائمًا في متناول اليد. وتتحقق الطمأنينة ليس بالتمتع باللذة الحاضرة بل باستعادة ذكرى اللذة السابقة ورجاء أو الأمل بالحصول على اللذة في المستقبل. سعادتنا تتوقف على النفس. فيجب أن نوجه كل جهودنا لتوفير الطمأنينة للنفس والتوازن للجسد.

هناك نظام ثابت في الكون والجهل به أو عدم الاعتراف به سبب رئيسي للاضطراب النفسي والألم. فعلى الإنسان أن لا يخاف الظواهر الكونية ولا القدر ولا الآلهة ولا الموت، لأن تلك المخاوف تتغذى على المخيلة. ويعلم الإنسان الحكيم أن الموت فناء تام للنفس وللجسد ولا مجال للإنسان والموت أن يلتقيا. فحين يكون الإنسان موجودًا، يبقى